حروب الردة

لتفصيل الكلام فى حروب الردة مكان غير هذا المكان.

لأننا تناول منهـا فى هذا الكتـاب مـا يتـصل بأعـمال خـالد وتقـديم خصائصه ومزاياه. وتدع ما عدا ذلك لمكانه من الشروح والمطولات.

وقد رجعت حروب الردة - كجميع الثـورات والأحداث الاجتماعية - إلى أسباب مـختلفة ولم تنحصـر فى سبب واحد، وربما كان من أسبـابها ما خـفى على المؤرخين ولا يزال خـافـيا علينا وحـتى الآن، ولكننا نعـتقـد أن الأسباب الآتية كافـية لتفسيرها وتفسير نصـيب خالد منها، على القدر اللازم لفهمها وتصحيح دلالتها.

فمن أسباب حرب الردة تمرد القبائل القوية على قريش، وأقواها القبائل التى تنتمى إلى ربيعة دون مضر. فإنها كانت تتعصب لنسبها وتأنف أن تعلوها قريش فضل النبوة والرئاسة، وصرح بذلك طليـحة النمرى حين لقى مسيلمة زعيم بنى حنيـفة ومدعى النبوة فى اليمـامة فقال: أشـهد أنك كذاب.. لكن كذاب ربيعة أحب إلينا من كذاب مضر. وكان مسيلمة هذا يقول: إنه أراد أن يأخذ نصف الأرض ويترك نصفها لقريش "ولكن قريشًا قوم لا بعد لون!"

ولم تكن المنافـسة بين قبـائل مضـر أخف ولا أضعف من المنافـسة بين مضر وربيعـة، فإن المنافسة فى الأقربين أشد وأيقظ من المنافـسة بين الأبعدين كما هو المعهود فى كل قبـيل. فكانت ذبيان وعبس وبنو أسد تكره من سيادة القرشيين ما تكرهه القبائل البعيدة. وروى عن عينية بن حصن مثلما روى عن طليحة النمرى إذ قال يؤيد المتنبئ طليحة بن خويلد: "نبى من الحليفين أحب إلينا من نبى من قريش" ويعنى بالحليفين بنى أسد وبنى غطفان

وكانت قريش تقـابل مثل هذه النفرة[1] بمثلها فى أيام خصـومتها للنبى

---

(١) النفرة: الأعراض والصدود.

وثورتها عليه. فكان صفوان بن أميـة مشركا فى وقعة حنين، ولكنه أنكر من أخـيه أن يفـرح بنصر هوازن وحـلفائهـا، وصاح به وهزيـمة المسلمـين على أشدها: "أسكت فضن الله فاك[1]! أتبشرنى بظهور[2] الأعراب.. والله لأن يربنى[3] رجل من قريش أحب إلى من أن يربنى رجل من هوازن"

ومن أسباب الردة ثـروة البادية على الحاضرة. فمـا زال من دأب البادية فى كل زمان أن تنقم على الحاضرة سلطانها ونعمتها، ولم يشذ عن هذه السنة إلا بضع قبائل فـيما بين مكة والمدينة كانت تخشى من سطوة القـبائل الكبرى ما ليست تخشاه من سطوة المدينتين، وكانت تحتكم فى خصوماتها إلى وساطة أهل مكة تارة وأهل المدينة تارة أخـرى، فتؤثر مـودة الجوار بعد طول الخـبرة وطول العشـرة على بلاء الفتنة فـيما بينهـا إذا زال سلطان مكة والمدينة، ولزم ببعض هذه القبائل الحـيدة يترقب ما يكون، وأسرع بعضهـا إلى تلبية الدعوة فحارب فى صفوف المسلمين ومن أسباب الردة نجاح الدعوة المحمدية بعد فتح مكة، فإن هذا النجاح أطمع بعض القادة من رؤساء العشائر فى بلوغ مثل هذا المطلب الجليل..

فما هو إلا أن استـقر الأمر لمحمد فى الحجاز ومـا حوله حتى اشرأبت الأعناق للاقتداء به، وظن من ظن أنهم قادرون على ما قدر عليه، وأن المسألة كلها مـسألة كهانة وأسـجاع وقيادة وأتبـاع، وقصرت عقـولهم عن إدراك سر القوة الأصلـية التى هيأت لمحـمد كل ذلك التـوفيق العظيم، وهـى أن دعوته مطلوبة لإصلاح الأخـلاق والمعاملات ونظم الحكم والمعيشـة فى العالم كله، ولـيست مجرد نـهزة[4] تنتهـز لظهور رئيس مطـاع وتحقيق مـجد مـرموق. فنجم[5] الدعاة فى حـياة النبى باليـمن، ونجد، والبـحرين، لمجـاراة الدعوة

---

(١) فض الله فاك: كسر أسنانك. (٢) ظهور الأعراب: انتصارهم.

(٣) يربنى: يكون فى ربا، أى يملكنى ويحكمنى.

(٤) نهزة: فرصة. (٥) نجم الدعاء: ظهروا.

بالحجاز، وجاءت وفاته عليه السلام إثر ذلك فجرأتهم على المجاهرة بالعصيان.

ومن الأسباب التى أثارت القبائل فريضة الزكاة التى فرضها لإسلام على كل مستطيع، فإنها أثارتهم لضنهم بالمال، أنفتهم من الإتاوة، وخالفت ما ألفوه حتى ما أكاسرة الفرس قياصرة الروم، لأنهم كانوا يأخذون من هؤلاء أكثر مما يعطون، وكانت الإتاوات التى يرضخون عنها أقل من المنح التى توزع عليهم بين حين وحين، باسم الخلع أو الهبات.

بل كان منهم من ضاق ذرعا بالفرائض فأسقطها الدعاة عنهم جميعا، وأعفوهم من كل فريضة، ومنهم من أنف من السجود فقال لهم طليحة الأسدى: "أن الله لا يصنع بتعفير وجوهكم(١)، فاذكروا الله قياماً، فإن الرغوة فوق الصريح!"(٢).

ويلحق بهذا وأشباهه أن الدين الجديد لم ترسخ جذوره بعد فى نفوس الأقصين من أعراب البادية، ولم تهجر طباعتهم بعد عادات الجاهلية فى العبادة والمعيشة، وقد كان المسلمون أعلم بهم من أن يدهمهم داهم بالمفاجأة من قبلهم، لأنهم عرفوا طويتهم قبل ذلك من القرآن الكريم: "قالت الأعراب آمنا، قل لم تؤمنوا ولكن قولوا أسلمنا، ولما يدخل الإسلام فى قلوبكم"

وليس أقرب إلى المألوف من نكوص هؤلاء على أعقابهم بعد موت النبى وشيوع الفتنة والاضطراب عن هؤلاء على أعقابهم بعد موت النبى

---

(١) إن الله لا يصنع بتعفير وجوهكم: يريد تعفير الوجوه بالسجود، أن الله لن يستفيد من ذلك فاذكروه وأنتم قائمون بلا سجود.

(٢) الرغوة فوق الصريح: مثل معناه قائمون أن الأمر غامض عليك وسوف يبدو لك والذى فى (مجمع الأمثال) "الصريح تحت الرغوة، والصريح هو الخالص النقى - كاللبن مثلا - وتكون الرغوة على سطحه.

وشيوع الفتنة والاضطراب عن إيمانهم وشمائلهم، مع إغراء الدعاة وفرط الحنين إلى القديم وهو منهم جد قريب

وثمة سبب لا يغفل ولو لم تذكره التواريخ بالسند القاطع والنص الصريح: وهو الدسيسة المبثوثة من الدول الأجنبية.. كل منها بما يؤائمها وبما هى قادرة عليه..

وهذا يفسر لنا أن النبوة ظهرت من العرب أولياء فارس، ولم تظهر من العرب أولياء الروم، وهم الغساسنة ومن جاورهم من قبائل التخوم السورية، فهؤلاء يدينون بالمسيحية، فلم يظهر، بينهم مدع أو مدعية للنبوة، ولكنهم ناوشوا المسلمين على التخوم مناوشة الحرب والوقيعة، أما التغلبيون على مقربة من فارس فلم يكن عليهم حرج من دولتهم التى تحميهم أن يحاربوا دين العرب الجديد بدين آخر، ولم يجدوا حرجا من عقيدتهم أن يسمعوا إلى المتنبئين والمتنبئات، لأن عقيدتهم هذه كانت مزيجا من المجوسية والوثنية ومسحة[1] من المسيحية لا يرضاها أتباع كتاب. فلهذا ظهرت بينهم سجاح وسلكت فى التبشير بدينها العجيب مسلكا لا يستريح العقل التى تفسيره بغير التفسير واحد، وهو أنها كانت تعمل لغرض سياسى وبإغراء دولة أجنبية، ولا تعمل لغرض دينى ولا بدافع من عندها وعند ذويها

فسجاح هذه كانت من بنى يربوع أقرب بطون بنى تميم إلى نفوذ فارس، ثم تزوجت فى أخوالها التغلبيين بالعراق، ثم انحدرت من ثم إلى أرض بنى تميم مبشرة بدين جديد بعد موت النبى عليه السلام، وانحدر معها جيش كثيف لا يستهان بأمره، فلما دعت قومها الأولين بنى يربوع إلى هذا الدين طلبوا إليها - على ما يظهر - أن تؤلف بطون بنى تميم جميعا إلى دينها قبل الزحف على الحجاز لمحاربة المسلمين، فلم يتفق تميم على رأى. وتركتهم إلى

(١) مسحة. تقول (بها مسحة من جمال) أى شىء من جمال.

اليمامة حيث كان مسيلمة الكذاب ينحفز كذلك للخروج على الإسلام، ولم يكن أوفق لهما بهذه المثابة من التعاهد على غرض واحد هو: الزحف على الحجاز، ولكنها رجعت إلى قومها وهى تقول: "إنها وجدته على الحق فتزوجته" وإنه سيؤدى لها نصف غلات اليمامة، وقد استنجزته شطر هذه النصف قبل مرجعها إلى بلادها..

فلماذا خالفها بنو تميم؟ ولماذا خالفها مسيلمة؟ ولماذا انحدرت ثم عادت إن يعطيها خليفة المسلمين، ويجرد لحربه جيشا قيل إن عدته أربعون ألفا، وقيل بل ستون، ولم يقل عشرين ألفا فى تقدير أحد من المؤرخين؟..

كل أولئك لغز سخيف لا يقبله العقل إلا على وجه واحد، وهو أنها كانت داعية الفرس لتحريض العرب على الثورة، ومن ثم أصابت ما أصابت من الإخفاق أو النجاح.

ويعزز ذلك أنها لقيت فى رحلتها عملاء فارس جميعا عن أبناء البوادى العراقية والنجدية، وأنها عملت حيث كان الأكاسرة حريصين على تجديد نفوذهم القديم..

قال ابن الكلبى: "كانت عير كسرى تبذرق - أى تحرس - من المدائن حتى تدفع إلى النعمان بن المنذر بالحيرة، والنعمان يبذرقها من بنى ربيعة حتى تدفع إلى هوذة بن على الحنفى باليمامة، فيبذرقها حتى يخرجها من أرض بنى حنيفة، وتجعل لهم جعالة(١)، فتسير بها إلى أن تبلغ اليمن"

وعلى هذا تكون مهمة سجاح قد وضحت على هذه الصورة التى لا لغز فيها ولا تناقض بين أجزائها.

ويكون بنو تميم وبنو حنيفة قد عاملوها المعاملة الواجبة لم يعتز بصولة الأكاسرة ويخلف المناذرة فى وقت واحد.

---

(١) الجعالة: ما يجعل على العمل من أجر أو رشوة.

فقد هدمت وقعة ذى قار - التى مر ذكرها بأول هذا الكتاب -[1] هيبة الأكاسرة فى الجزيرة العربية

وساء ظن الأكاسرة بالمناذرة - ملوك الحيرة - الذين كانوا صنائع[2] فارس، وكانت فارس تعول عليهم فى إخضاع البادية القريبة والبعيدة، فنكلوا بهم وعصفوا بدولتهم قبيل ذلك بقليل. فأرسل الأكاسرة أميرة تغلبية لتخلف المناذرة فى هذه المهمة القديمة.

وكان اختيارها من بنى أدنى شىء إلى المعقول والمنظور، لأنهم أعداء بنى بكر الذين تصدوا لحرب الفرس وهزموهم فى وقعة ذى قار.

ثم كان تردد بنى تميم وبنى حنيفة معاملتها أدنى شىء كذلك إلى المعقول والمنظور، لأنهم أصدقاء المناذرة من زمن قديم، فلا هم راضون بهوانهم ولا هم قادرون على إغضاب فارس وغاية ما فى وسعهم أن يصرفوا سجاح راضية ويقنعونها بأن الثورة على الإسلام حاصلة، ويكون عملهم جميعا معقولا على هذا التفسير حيث يعوزه الفهم والضوح على كل تفسير سواه.

بل نحن نخطر هذا فى أخلادنا[3] فنفهم كيف اشتد التغلبيون فى حرب المسلمين، وكيف اشتد المسلمون فى حرب التغلبيين يوم اشتبكت جيوش الإسلام وجيوش الأكاسرة على أثر حروب الردة، فهى لها شدة لها أوائلها[4]، ونهاية جاءت بعد بداية وكانت رحلة سجاح إلى الجزيرة العربية هى أولى الطلائع فى حرب الأكاسرة والإسلام..

من جملة هذه الأسباب يجوز لنا أن نقول: إن المدينة ومكة وجيرتهما كانت تقف وحدها فى وجه البادية العربية بأسرها، ومن وراء البادية دول

---

(١) أرجع إلى ص ١٠ وهامشها. (٢) صنائع: عملاء.

(٣) أخلادنا: الأخلاد جمع خلد (بفتحتين) وهو البال والقلب.

(٤) لها أوائلها: يعنى: لها مقدماتها وأسبابها.

كبيرة تنصرها ولا تنصر المدينتين فى هذه المعركة وقد كانت حروب الردة طائفا[1] من الشر لاشك فيه.

ولكنها ولا ريب لم تكن شرا محضا خلواً من جانب المصلحة والفائدة. لأن هذه الحروب وحدت عناصر المدينتين وهما وشيكتان أن تفترقا كل مفترق، فاجتمعت منهما قوة تكافئ كل قوة من قوة فى البادية على انفراد، وتيسر لهما من ثم أن تأخذا من البادية قوة تفل قوى الدول الواقفة لهما بمرصد قريب..

ولولا حروب الردة لكان الخلاف بين المهاجرين والأنصار خليقا أن يتشعب ويستفحل، وكان الأنصار فيما بينهم مختلفين شيعتين كبيرتين.. ثم شيعا صغارا فى كل من الشيعتين، وكذلك كان المهاجرون من هاشميين وأمويين ومن سائر بطون قريش، فإن بنى هاشم على انفرادهم لم يجتمعوا بينهم إلى كلمة، ولم يكن لهم مطمع فى الوفاق وبين بطون قريش الأخرى، ودع عنك الوفاق بين طوائف المسلمين أجمعين.

فلما تحفزت البادية للوثوب على المدينة أحس المسلمون جميعا أنهم فريق واحد، مهدد بخطر واحد، فاتفقوا بوحى البداهة التى لا موضع فيها لتعمل التفكير وحيلة الحض والتحريض، ولبثوا متفقين ما كانوا بحاجة إلى الوفاق، وما كان الشقاق بينهم مرهوب العواقب محذور الأخطار..

وغنى عن القول أن خالد بن الوليد كان فى وسط هذه الحومة بكل داع من دواعيه النفسية والعقلية. بداعى العقيدة الإسلامية، وداعى العصبية القرشية، وداعى النشأة الحضرية، وداعى القيادة العسكرية التى قدمته إلى طليعة المجاهدين فى هذا الميدان.

---

(١) طائفا من الشر: الطائف: ما كان كالخيال يلك بالشخص، والمراد هنا أن حروب الردة كانت شرا أطاف بهم.

فشهد حروب الردة من أوائلها إلى نهاياتها، وقسمت له الحض الحصة الكبرى فى أهم وقائعها وأعصب أوقاتها، ومنها وقعة واحدة ترجح بها جميعا وتعد من حروب الإسلام الحاسمة فى صدر تاريخه، وهى وقعة اليمامة التى انتصر فيها بعد هزيمة قائدين وتنقسم أعمال خالد فى حروب الردة إلى قسمين: أحدهما الذى اشترك فيه من كبار الصحابة بقيادة الخليفة فى المدينة وما جاورها، والآخر الذى استقل به أو استقل على الأصح بناحيته العسكرية هو أعظم عملية فى هذه الحروب.

توفى النبى عليه السلام وجيش أسامة بن زيد فى الجرف من أرياض[1] المدينة، والفتنة على مقربة منها تتطلع برءوسها. فعاد فريق منه إلى المدينة وأشار بعض الصحابة على الخليفة أن يرجئ مسيرته ويستبقيه عنده فترة من الزمن ريثما أن يخلف فى عقر داره خلال تلك الغاشية[2]. أبى أشد الإباء أن يخلف وصية للنبى أوصى بها من وفاته، وقال قولته المأثورة: "والله لا أحل عقده عقدها رسول الله، ولو أن الطير تخطفتنا والسباع من حول المدينة، ولو أن الكلاب جرت بأرجل أمهات المؤمنين لأجهزن جيش أسامة" " ونادى فى المسلمين: ليتم بعث أسامة! ألا لا يقين بالمدينة أحد من جند أسامة إلا خرج إلى عسكره بالجرف.

وسار الجيش إلى وجهته كما أراد.

فخلت المدينة من الجند إلا بضع مئات من رجال المهاجرين والأنصار. ودرى أقرب المرتدين إليها بحالها من العزلة وقلة الحامية فزحفوا عليها وظنوا أنهم إذا هددوها وهى عزلاء وتوسلوا بالمفاوضة والوساطة فى الوقت نفسه رجع الخليفة عن عناده وقبل منهم ما ساوموه عليه، وهو إقامة الفرائض كلها، والإعفاء من الزكاة.. أو من الجزية كما سموها!

---

(١) الجرف: (بضم الجيم) موضوع قرب المدينة، وأرباض المدينة: ما حولها.

(٢) الغاشية: النازلة من خير أو شر أو مكروه.

زحفت مئات من عبس وذبيان وفزارة على المدينة، وتركوا شطرا من جموعهم فى الربذة حيث تلقى طرق كثيرة على مسافة حسا وذى القصة وهى أقرب محلة إليها. ثم أوفدوا سفراءهم ينزلون بالناس فى بيوتهم ويتوسلون بهم إلى الخليفة أن يقبل منهم ما عرضوا عليه. فأبى إباءه الذى لا ينثنى وقال: لو منعونى عناقا لجاهدتهم عليه[1].

فقفلت الوفود إلى جماعتها، وعلم الخليفة بقفولها، وأخذ التأهب للأمر بحذب العمل وحزم التدبير والحيلة بعد حزم الإيمان. فلم يدع شيئا قط يستعد به للخطر المنتظر إلا أعده فى أوانه، وعلى الوجه الأمثل فى تلك الأحوال..

فأقام كبار الصحابة على الأبواب، جمع فى المسجد من استطاع جمعه من المجاهدين، وأرسل العيون على الطرقات من كل سبيل، فما هو أن جاءوه بنبأ القوم ومواضع جماعاتهم المختلفة حتى خرج مع الليل ليضربهم من حيث لا يتوقعون قدومه، ودهم من كان منهم بذى القصة فذعروا لهذه البغتة التى لم تكن لهم على بال، ولاذوا بالفرار حتى لحقوا بأصحابهم فى ذى حسا فصمدوا هناك للمقاومة، وقيل إنهم تحيلوا[2] على إبل المسلمين التى لم تروض للقتال فضربوها بالأنحاء[3] المفتوحة فى وجوهها فنفرت وولت مجفلة من حيث أتت. فأطمعهم ذلك فى الهجوم على المدينة، وظنوا أن أهلها لن يفارقوها يومهم على الأقل بعد هذه الهزيمة..

إلا أن الخليفة لم ينتظرهم معتصمًا بالمدينة كما انتظروا. بل خرج بمن فى هزيع من الليل على تعبئة كاملة، وهبط عليهم عند طلوع الصبح وهم

---

(١) العناق: (بفتح العين) الأنثى من أولاد المعز والغنم من حين الولادة إلى تمام السنة.

(٢) تحليوا: استعلموا الحيلة.

(٣) الأنحاء: جمع (نحى) بكسر النون، وهو زق السمن، ويقال أن الإبل لا تنفر من شىء كما تنفر من الأنحاء.

على غير أهبة، فلم يلبثوا قليلا حتى تفرقوا وارتدوا، ولم تقم لهم بعدها قائمة في هذه المحاولة الفاشلة. لأن جيش أسامة عاد من وجهته قبل أن يسعفهم مدد نافع، فيئسوا أن يأخذوا المدينة عنوة أو غرة بعد ما أعياهم أخذها وهى قليلة الحامية مفتوحة الطريق.

تلك كانت هجمة المرتدين الأولى على معقل الإسلام.. ظفر فيها المسلمون لأنهم اعتصموا بحزم الإيمان وحزم التدبير وحزم الوفاق، وانخذل فيها المتردون لأنهم كانوا على نصيب ضئيل من هذه العدد الثلاث، فخانتهم عزيمة الدين والرأى وعزيمة الكلمة الواحدة، ولعلهم لو شاءوا أن يتحدوا كلمة وفعلا لفاتهم طلاب ذلك، لقلة الكلأ[1] والماء الذى يكفيهم مجتمعين. فكان تفرقهم مما أعان المسلمين عليهم، وعوضهم عن قلة الجند رجحانا يقابلون به الكثرة منحلة الوثاق

ومن عجائب الخليفة الصديق أنه كان يعتصم بالإيمان حتى يقال لم يدع مزيدا للحيلة والتدبير، ويعتصم بالحيلة والتدبير حتى يقال لم يدع مزيدا للإيمان..

ففى هذه الفترة التى شغل فيها أولئك المرتدين بالهجوم والدفاع كانت رسله إلى كل مكان تستنفز[2] القبائل الموالية للنجد، وتمشى بالوقيعة والتفرقة بين القبائل المعادية أو المتربصة للعداء، وتأتيه بالأخبار من كل صوب فيعمل وهو بصير، ويعملون وهم متخبطون مضللون..

فلم تنقض هجمة فزارة وعبس وذبيان حتى استتم له جيش كبير من أبناء القبائل الموالية فى جوار المدينة ومكة، ومعهم جيش أسامة وعدته بضعة آلاف من المدربين على القتال.

ومضى رسوله "عدى بن حاتم الطائى" إلى قومه بنى طليئ وهم

---

(١) الكلأ: العشب. (٢) تستغفر القبائل: تطلب منهم النفار أب أن يهبوا للقتال.

متـرددون: فريق يعـصى الخليفـة ويلحق بالمتنبئ الأسـدى طليحة بن خـويلد ومعـهم فلول المرتدين عن المدينة، فـريق يحجم عن الـعصيـان ويؤثر البـقاء والانتظار. فأرهبهم من مغبة العصيان[1]، وساعده على إرهابهم مصير عبس وذبيان. وأنذرهم ليـهبطن عليهم جـيش لا قبل لهم بدفعـه من تلك الإمداد التى تتدفق علـى المدينة، أو يثوبوا[2] إلى الإسلام وإيتـاء الزكاة. فـأصنعوا إليه، وسألوه المهلة حتى يستخرجـوا من لحق بطليحة من إخوانهم لئلا يقتلهم وهم بين يديه، ووعدوه أن يدخلوا بهم جمعيا فى زمرة جيش المسلمين.

إلى هنا انتهت المرحلة الأولى التى اشتـرك فيها المسلمون جميـعا بقيادة الخليـفة المرتدين عن المدينة، وكـان شأن خـالد فيـها شـأن غيـره من أبطال المجاهدين..

وآن تبدأ المرحلة الثانية وهى المرحلة التى توزع فيـها الأعمال بين القادة فى شتى الميادين، بعـد أن تمت العدة وتوافدت الأمداد من مخـتلف القبائل، واستـراح جيش أسامة، وهدأت سـورة القيظ[3] وبدأ الخريف، وأصبح من الميسور للخليفة أن يوجه البعـوث إلى المتنبئين فى مواطنهم، ليعجل كل منهم عن مراده قبل استفحال خطبه.

ففى أول هذه المرحلة نرى خـالدا "بذى القصة" حيث عقـد له الخليفة لواء القيـادة على جيش تتجـاوز عدته أربعـة آلاف مقاتل، أكـثرهم من أبناء القبـائل الموالية وأقلهم من المهـاجرين والأنصار. ووجـهتـه إلى "بزاخة" من أرض بنى أسد حيث اجتمع بنو أسـد وقيس وحلفاؤهم إلى المتنبئ القائم بأمر الردة هناك طليحة بن خويلد.

وربما كان الصحيح أن خالدا إنما استقل فى أول هذه المرحلة بعمل القائد العسكرى فى تنفيذ خطة مرسومة بتفصيلاتها. إذ كانت هذه الخطة متفقا عليها

---

(١) مغبة: عاقبة. (٢) يثوبوا: يرجعوا. (٣) سورة القيظ: شدة الحرارو.

بينه وبين الخليفة، وكان الخليفة اليقظان - يأمره بما يصطنع خطوة بعد خطوة، وينبهه إلى مواقف القبائل ومواطن الخطر منها على درجاته، ويصحبه إلى بداية طريقه.

قال الخليفة وهو يودع الجيش: "أيها الناس: سيروا على اسم الله وبركته، فأميركم خالد بن الوليد إلى أن ألقاكم. فإنى خارج فيمن معى إلى ناحية خيبر حتى ألاقيكم".

ثم خلا بخالد وأسر إليه امرأ ثم قال: " . . . عليك بتقوى الله وإيثاره على سواه، والجهاد فى سبيله، والرفق بمن معك من رعيتك، فإن معك أصحاب رسول الله ﷺ وأهل السابقة من المهاجرين والأنصار، فشاورهم فيما نزل بك ثم لا تخالفهم. فإذا دخلت أرض العدو فكن بعيدا من الحملة[١] فإنى لا آمن عليك الجولة، واستظهر بالزاد[٢]، وسر بالأدلاء، وقدم أمامك الطلائع ترتد[٣] لك المنازل، وسر فى أصحابك على تعبئة جيدة، وأحرص على الموت توهب لك الحياة، ولا تقاتل بجروح فإن بعضه ليس منه، واحترس من البيات[٤] فإن فى العرب غرة، وأقلل من الكلام، وأقبل من الناس علانيتهم وكلنهم إلى الله فى سريرتهم[٥]، وإذا أتيت دارًا فأقحم[٦]. فإن سمعت أذانا أو رأيت مصليا فأمسك حتى تسألهم عن الذين نقموا الصدقة، فإن لم تسمع، أذانا ولم تر مصليا شن الغارة[٧]، فاقتل

---

(١) الحملة: حمل عليه فى الحرب حملة أى تر عليه كرة.

(٢) استظهر بالزاد، استعن به. (٣) ترتد: الفعل مجزوم فى جواب الأسر وأصله (ترتاد).

(٤) البيات: المفاجأة فى الليل.

(٥) كلهم: (بكسر الكاف): فعل أمر من (وكل) بمعنى (فوض).

(٦) فاقحم: أدن - واقترب.

(٧) شن الغار: لعلها (فشن الغارة الخ)، والرواية فى تاريخ الطبرى "إذا غشيتهم دارا فسمعتهم فيها أذانا للصلاة فأسكوا عن أهلها حتى تسألهم ما الذى نقموا، وأن لم تسمعوا أذانا فشنوا الغابرة فاقتلوا وحرقوا".

وأحرق كل من ترك واحدة من الخمس. . . وإذا لقيت أسدًا وغطفان فبعضهم لك وبعضهم عليك، وبعضهم لا عليك ولا لك متربص السوء ينظر لمن تكون الدبرة[1] فيميل مع من تكون له الغلبة، ولكن الخوف عندى من أهل اليمامة، فاستعن بالله على قتالهم، فإنه بلغنى أنهم رجعوا بأسرهم، فإن كفاك الله الضاحية[2] فامض إلى أهل اليمامة سر على بركة الله"

ولم يكن الخليفة على نية المسير إلى خيبر كما أعلن أمام الناس، ولكنه لم يشأ أن يعلن سير الجيش إلى بزاخة نصًا لمقاصد متعددة: منها أن يخيف بطون طيئ حين يقصد إليهم جيش خالد بقضه وقضيضه فيجهز على بقية التردد التى تهجس فى صدورهم، ومنها أن يقنع طليحة بإرسال من عنده من طيئ لنجدة إخوانهم والدفاع عن بلادهم، ومنها أن يدهم طليحة على غرة وهو يظن أن الجيش متجه إلى غير بزاخة ومنصرف عنها إلى حين، ومنها أن يلزم أهل خيبر أماكنهم فلا يشتركوا فى قتال. .

وقد عمل خالد بهذه الخطة فمضى فى طريق بزاخة ثم عرج إلى اليسار قبل منتصف الطريق كأنه يريد الحملة على ديار طيئ، هناك وافاه فوق الألف من مقاتلة البطون الطائية ممن تخلى عن طليحة أو كان نية اللحاق به بعد قليل.

وقبل أن يستوى خالد فى طريقه إلى بزاخة جاءه أناس من الطائيين فعرضوا عليه أن يكفوه حرب قيس، ويعفيهم من حرب بنى أسد لأنهم حلفاؤهم منذ الجاهلية. ولم يكن عدى بن حاتم على رأى قومه فقال لخالد: لو ترك هذا الدين أسرتى، الأدنى فالأدنى من قومى لجهادتهم عليه. أفأنا

---

(١) الدبرة: (بسكون الباء أو فتحها): تكون بمعنى الهزيمة إذ قلت (جعل الله عليهم الدبرة) بمعنى الظاهرة إذا قلت (جعل الله لهم الدبرة).

(٢) الضاحية: الناحية الظاهرة خارج البلد، والمراد: إذا انتهيت من قتال المرتدين من أهل الضواحى فاتجه إلى اليمامة.

إمتنع عن جهاد بنى أسد لحلفهم؟.. فلم يشأ خالد أ، يكره أناسًا على حرب من يسالمونهم ولا يتحمسون فى قتالهم، وقال لعدى: لا تخالف قومك، وامض بهم إلى القوم الذين هم لقتالهم أنشط، والله ما قيس بأوهن الشوكتين[1]. امضوا إلى أى القبيلتين أحببتم".

وأتم تعبئة للقتال وهو على الطريق، فجعل القبائل على ميمنته والأنصار والمهاجرين على مسيرته، وصمد هو فى القلب مع فئة من هؤلاء وهؤلاء..

أما طليحة فالظاهر أنه كان أحذر من أن يؤخذ على غرة، فإنه قد رصد العيون على فجاج الصحراء فعلم بمقدم المسلمين قبل وصولهم إلى بزاخة، وأعد العدة لكلتا الحالتين من غلبه وفرار، فعزل أكثر النساء فى مكان أمين لئلا يقعن فى السبنى إذا دارت الدائرة عليه، وأقام حوله أربعين فارسًا من اشد فتيان بنى أسد ليدرأوا الهجمة عنه، كأنه كان يعلم أسلوب خالد فى قتاله.. إذ كان وكده[2] قبل كل وكد أن ينحى بالضربة المصمية[3] على رئيس القوم فيفت فى أعضاد القوم جميعا بقتله أو إكراهه على الفرار. ولم يكن طليحة جبانًا ينتحى عن الطعن والضرب وراء غيره، بل كان مشهورًا بالشجاعة معروفًا عنه أنه أقسم إلى الحذر والحيطة منه إلى المجازفة والحماسة، وكان فى هذه الخصلة نقيض نده الذى يصاوله وينازل بالسلاح والأخلاق، فكان خالد أقرب إلى المجازفة والحماسة منه إلى الحذر والحيطة.

ولقد كانت لجيش طليحة مزيتان، هما الكثرة والراحة.. فقد كان جيشه يربو على جيش المسلمين ألف مقاتل أو زيادة، مع وفرة السلاح

---

(١) بأوهن الشوكتين: أوهن: أضعف، والشوكة: القوة والبأس.

(٢) وكده: الوكد (بفتح الواو): القصد والمراد، وبضعها: السعى والإجهاد.

(٣) المصمية: التى تدع المضرب يقع قتيلا بين يدى ضاربه.

والركائب، وكـان مستريحًـا فى دياره على خلاف جيش المسلمـين الذى كان عليه أن يلقاه بعد مسير مئات من الأميال فى الأودية والجبال

ولهذا أوشك أن يفوز بيومه لولا عزمه من عزمات القيادة التى تأتى فى إبانها[1] وتدور برحى الحرب من طرف إلى طرف فى ساعات معدودات.

فلما التحم الجيشان ثبت طليحـة وأصحابه ثبات المستميت، وكروا على المسلمين كرة عنيفة فكشفوا الميمنة، ولحـقت بها الميسرة، وانقضت هنيهة خيل فيها إلى المسلمين أنهم منكسـرون لا محالة، وجاء بنى طيئ إلى خالد ينصح له أن يتراجع يومه ليعتصم بجبـال طيئ، ويستدرج المرتدين إليها. فأنكر عليه نصحته وزجره قائلا: لا أعتصم بغير الله!

ثم عول عـلى الكرة فى كبـة الجمع[2] ليـبلغ النصر أو يمـوت دونه. فأرسل فريه مقاتلا على قدميه ليـملك الحرمة حيث يشاء، ويبعث القدوة فى قلوب صحـبه، ونادى بالأنصار كـأنه ذكر موقف النبى يـوم حنين: يا أنصار الله.. فلبـوه مندفعيـن إليه، وثاب أبناء القـبائل إلى مواضـعهم، فـاستـحر القـتل[3] "دثار الكهـانة"[4] يوهمـهم أنه يلتـقى الوحى أو يـنتظر المدد من السماء.

وقد كان أتباعـه يحبون أن يؤمنوا به مجاملة له ومرضـاة لكبرياء القبيلة فى أنفسهم، فلما جـد الجد أحبوا أن يروا لهذا الإيمان عـلامة، وسأله زعيم فزارة عيـينة بن حصن وهو من أعز أنصاره وألد أعـداء المسلمين: هل جاءك جبريل؟ لا.. ثم رجع له مستعجلا وحتى الـسماء صائحا به وقد نسى غضبه أنه يخاطب زعمـه نبيا من الأنبياء: لا أبالك، أجاءك صـاحبك؟ قال: لا..

---

(١) فى أبائها، فى وقتها المناسب. (٢) الكعبة: الزحمة.

(٣) استحر القتل: صار حارا شديدا.

(٤) دثار الكهانة: الدائر: الغطاء، أى لبس الكهان.

فصاح به: حتى متى؟ قد والله بلغ منا فلما عاوده الثالثة خجل أن يجيبه جوابه الأول وقال له: نعم جاءنى وأوحى إلى "أن لك رحى كرحاه، وحديثًا لا تنساه.. "[1] فسخر منه عيينة وقال: "نعم.. هو حديث لا ننساه.. "، ونادى فى قومه وهو مؤمن بهزيمة طليحة وإدبار أمره: انصرفوا يا بنى فزارة.. إنه لكذاب. وجعل طليحة يسألهم من حيرته، ما يهزمكم؟.. فأجابه أحدهم: أنا أحدثك ما يهزمنا، إنه ليس رجل منا إلا وهو يحب أن يموت صاحبه قبله، وإنا لنلقى قوما كلهم يحب أن يموت قبل صاحبه".

وأدرك طليحة حذره[2]. وكان قد أعد لهذا الحذر عدته، فركب فرسه وأردف امرأته النوار على راحلة[3] وراءه، ونجا بها وهو ينادى أتباعه: "من استطاع أن يفعل هكذا فليفعل". وما زال فى فراره حتى لحق بالشام.

وتعقب خالد فلو المرتدين ومن مالأهم[4] من قبائل هوازن وسليم حتى لحق فى "ظفر" حيث أحاطوا بسلمى أم زمل، وهى كأمها من قبلها مضرب المثل فى العزة والمنعة. كان يقال عن أمها "أعز من أم قرفة[5]" لأنها تعلق فى بيتها خمسين وسيفا كل سيف منها لرجل من ذويها، وقد سبيت هى فى عهد النبى عليه السلام فأعتقتها السيدة عائشة رضى الله عنها. فذهبت إلى قومها مغضبة لتلك العزة التى انتهى بها عناد قومها إلى الأسر والخدمة، واستثارت حمية الرجال بهذه الغضبة التى تثير الطبيعة البدوية ولو لم تجتمع

---

(١) الرحى: الأداة التى يطحن بها، وكان طليحة يستخدم فى القتال وحى، بترول فيما يقول من قرآنه المزعوم "أمرت أن تصنعوا وحى، ذات عرى، يرمى الله بهذا من رمى، يهوى عليها من هوى".

(٢) الحذر: (بكسر الحاء) الاستعداد والتأهب. (٣) الراحلة: الناقة.

(٤) ما لأهم: حالفهم ووقف فى صفهم.

(٥) آم قرفة: جاء فى مجمع الأمثال (هى امرأة فزارية، كانت تحت مالك بن حذيفة بن بدر، وكان يعلق فى بينهما خمسون سيفا لخمسين رجلا كلهم لها محرم).

إليها بواعث أخرى للغضب والثورة. فادر بين خالد وبين جيشها أحر قتال، ووقعت هى على جمل مشهور تضرم النخوة فى قلوب جندها، وترد الشجاعة إلى من أدبر للفرار، ومضى اليوم وهى تكافح ومن حولها زعماء جيشها يكافحون. فجعل خالد مائة من الإبل لمن يصيب الجمل. . وأرسل نخبة من فرسانه عليه فعقروه[1]، وقيل إنهم لم يصلوا إليه حتى قتل من دونه مائة رجل من حماتها المستيئسين.

وقد تفرقت سرايا خالد فى أثر المنهزمين تضربهم وتجمع الأسلاب والغنائم وتدعو إلى الإسلام.

فلم تمض أيام حتى كان قد فرغ من مهمتيه الأولين: وهما الإنذار والتغلب على الفتنة، وبقيت مهمته الأخيرة وهى القصاص والتأديب، ولعلها كانت ألزم وأحزم من قمع الفتنة وتمزيق الجيوش. لأن المرتدين كانوا قد أسرفوا فى التنكيل بالمسلمين الذين أصابوهم بينهم، ولم يتورعوا عن مثلة من المثلات[2] التى يتورع عنها المقاتل الكريم، وأصابوا أولئك العزل المنفردين فى غير ساحة حرب وبغير نذير من قتال. فكانت أوامر الخليفة، إلى خالد صريحة ألا ينى فى عقاب المعتدين[3] "ولا يظفرن بأحد قتل المسلمين إلا قتله ونكل به غيره"[4] ولم يكن خالد فى مواقف الصرامة والبطش بحاجة إلى توكيد وتشديد، فلم يقبل من المرتدين إلا أن يأتوه "بالذين حرقوا ومثلوا وعدوا على المسلمين" . ومثل بهم فأحرقهم بالنيران، ورضخهم بالحجارة[5]، ورمى بهم من الجبال كفعلهم بأولئك الأبرياء الغافلين عن عدوانهم الذميم. وقاد رؤساءهم فى جوامع الحديد إلى الخليفة ليصنع بهم من يشاء.

(١) عقروه: نحروه.

(٢) مثله: من (مثل به) أى نكل به يجدع أنفه أو قطع أذنه أو غيرهما من أعضاء الجسم.

(٣) ينى: مضارع (ونى) أى تراخى. (٤) نكل به غيره: جعل منه عبرة فوعظة لغيره.

(٥) رضخهم بالحجارة: رضخه: دقه بحجر وكسره.

وذلك درس لاشك أنه عنيف مخيف، ولكن لاشك أنه عادل فى شرعة الحرب والسلم، وأنه لازم كل اللزوم فى أحوال كتلك الأحوال.

وأية كانت المثلات بالمرتدين فهى على التحقيق لا تتجاوز المثلات التى تؤمر بها "حملات التأديب" فى عصرنا هذا لمعاقبة أناس لم يفترقوا فعالهم بجريرة الخروج على عقيدة أو شريعة، ولا بتهديد "الدولة" فى كيانها وهى أحوج ما تكون إلى الأمان والضمان..

ومع هذا وجد من كبار المسلمين من لام خالدا على الإمعان فى تأديبه على النحو الذى نحاه. فقال عمر بن الخطاب للخليفة منكراً إحراق الناس: بعثت رجلا يعذب بعذاب الله؟ انزعه!.

فلم يستمع إليه الخليفة لأنه كان حنقه على المرتدين لا يستعظم عليهم ضربا من ضروب العقاب.

ومهما يكن من مجاراة[(١)] هذا العقاب لطبع خالد، فهذه البعثة بين بعثاته جميعا هى بعثة التنفيذ المحض الذى لا يشوبه نصيب من الاستقلال، اللهم إلا استقلال القائد الكفء بحسن القيام على ما وكل إليه..

ومما لا غنى عنه قبل الانتقال إلى أعمال خالد المستقلة فى بقية حياته أن تتحرى نصيبها من إطاعة الأوامر ونصيبها من الإقدام على العمل غير مأمور به ولا محمود عليه.

فيجوز لقائل فى هذا الصدد أن يقول إن الخليفة لم يرسم لخالد خطة القتال والمداورة فى بعثة بزاخة، وإنما أفضى خالد بهذه الخطة إلى الخليفة فأقرها ووافقه عليها.

ذاك جائز غير ضعيف الجواز، ولكننا على هذا نرجح أن الخليفة هو صاحب الخطة من ألفها إلى يائها، وأن نصيب خالد فيها هو نصيب الإقرار

---

(١) أى من مشابهته لطبعه وملاءمته له، وكان خالد ينزع إلى الصرامة كما سبق القول.

والموافقة، ويميل بنا إلى هذا الترجيح أن نصائح الخليفة فى بدء البعثة قد شملت الصغائر والكبائر، وتناولت تفصيل الحركة كما تناولت تفصيل الصحيح عن موقف المرتدين فى كل قبيلة وكل ميدان، وأن الخطة قامت على التورية[1] والسبق بالهجوم، وكلاهما مما تعلمه الخليفة الأول بعد طول الصحبة من النبى عليه السلام، إذ كان مأثورا عنه أنه كان إذا قصد وجهة ورى بغيرها، وأنه كان لا ينتظر الهجوم بل يسبق المهاجمين إليه، وقد جرى الخليفة على ذلك فى دفاعه عن المدينة قبل مسير البعوث وعقد الألوية للقواد.

كذلك تواترت بعض الأقوال بمسير خالد إلى بنى تميم - بعد معركة البزاخة - قبل أن يأتيه أمر الخليفة بالهجوم. قبل إن الأنصار أنكروا عليه المسير إلى بنى تميم وقالوا له: "ما هذا بعهد الخليفة إلينا، إنما عهده إن نحن فرغنا من البزاخة واستبرأنا بلاد القوم[2] أن نقيم حتى يكتب إلينا" فقال لهم خالد: "إن يكن عهد إليكم هذا فقد عهد إلى أن مضى. وأنا الأمير وإلى تنتهى الأخبار، ولو أنه لم يأتنى كتاب ولا أمر ثم رأيت فرصة إن أعلمته بها فاتتنى لم أعلمه حتى أنتهزها".

بل قيل أكثر من ذلك إنه أغار على اليمامة قبل أن يأتيه الأمر من الخليفة بالإغارة عليها. وهى أهول حروب الردة، بل لعلها أهول من معظم حروب الفرس والروم.

فزعم قول أنه قال لصحبه بالبطاح[3]: والله لا أنتهى حتى أناطح مسيلمة. فأبى الأنصار وقالوا: هذا رأى لم يأمرك به أبو بكر، فارجع إلى المدينة. فأصر على رأيه وقال: لا والله. حتى أناطح مسيلمة. فرجعت

(١) التورية: التعمية والإيهام، وفعله (ورى) بتشديد الراء المفتوحة.

(٢) استرانا بلاد القوم: طهرناها من المرتدين.

(٣) البطاح: منزل لبنى يربوع حيث لقى خالد مالك بن نويرة.

الأنصار فسارت ليلة ثم قالوا: والله لن نصر أصحابنا لقد ندمنا، ولن هزموا لقد خذلناهم، فرجعوا إليه ومضى بهم إلى اليمامة.

والذى لا نزاع فيه أن الخليفة لم يبعث أحدا غير خالد إلى بنى تميم، ولو بعث غيره أن يقال إنه سار إليهم غير مأمور، ولكنه قال عند مسير جيشه من ذى القصة: "إذا فرغ سار إلى مالك بن نويرة بالطباح إن أقام له".

أما اليمامة فقد بعث إليها الخليفة عكرمة بن أبى جهل، ثم رأى حاجته إلى المدد فوجه فى أثره شر حبيل بن حسنة، وأمرهما أن يتلاقيا ولا ينفردا بالهجمة على اليمامة، ثم بدا لعكرمة أن يستأثر بالنصر وحده فهجم على مسيلمة قبل أن يوافيه المدد، فنكب نكبة شديدة. وتلقى الخليفة نبأ هذه النكبة فكتب إلى شرحبيل يأمره بالتوقف حتى يأتيه أمره، ولم يفعل أحد إن الخليفة وجه قائدا غير خالد لنجدة شرحبيل، ولا كان معقولا أن يكتفى بشرحبيل بعد هزيمة عكرمة وقد كان كلاهما عنده فى حاجة إلى التعزيز والإمداد.

وقد تقدم أن الخليفة قد بصر خالدا بشأن اليمامة قبل خروجه إلى البزاخة.. وليس ثمة من داع إلى الشك فى نسبة ذلك المقال إليه، ولا إلى الشك بعد هذا جميعه فى تولية خالد قيادة الجيش الذى سار إلى اليمامة..

ومن المتواتر جدًا أن خالدًا لقى الخليفة بعد مسيرة إلى تميم وقبل مسيره إلى بنى حنيفة. لأنه استدعى لسؤاله عن مقتل مالك بن نويرة وزواجه من امرأته ليلى. فهو قد توجه إلى اليمامة مأذونا بعد وقعة البزاخة وبعد وقعة بنى تميم وعدا هذا كله يكاد يستحيل على العقل أن يقبل أن خالدا قد تولى حربا كحرب اليمامة اشترك فيها أعظم الصحابة واستهدف المقاتلون فيها لأكبر الأهوال دون أن يندب لذلك بأمر صريح..

وغاية ما نفهمه الآن من ورود ذكر اليمامة عند عقد الألوية ذى القصة أن الخليفة عرف خطرها فأراد أن يجمع لها أكبر قوة من جيوشه فوجه إليهم عكرمة أولا ثم وجه شرحبيل بعد لتلاقيا معا، ويكون خالد قد فرغ فى خلال

ذلك من أمر بنى أسد فيدرك سابقيه معززا لهم إن تعذر عليهم أن يقهروا بنى حنيف قبل قدومه، وهى خطة تلائم ما عرف عن خطط الصديق من جرأة وحيطة وسرعة، ولا يمنع هذا أن الخليفة أمر خالدا أن يرجع إليه بعد كل مرحلة من مراحل هذه البعثة لعله قد استجد شيء فى غيابه.

وفحوى الأقوال الكثيرة التى تتفق بالبداهة على هذا النسق أن خالدا قد تولى التنفيذ فى ترتيب أعماله، وتولاه أيضا فى أوائل خططه، ولكنه قد وكل إلى نفسه فى الأمور التى يعلمها الشاهد ولا يعلمها الغائب. ومنها موعد المسير وطريقة الهجوم واللقاء. فقام بما وكل إليه جميعا على أكمل الوجوه وأقمنها[1] بموافقة الخليفة، إلا فى موضعين لكل منهما ارتباط بمسألة زواج: أحدهما فى البطاح والآخر فى اليمامة. فقد تعرض فيهما لمؤاخذة الخليفة ومؤاخذة كبار الصحابة، ولم يرض فيهما عرف الجاهلية أو عرف الإسلام.

وظاهر من مقال الخليفة فى ذى القصة أنه لم يكن على يقين من عداء بنى تميم، أو من ضرورة القتال فى أرضهم، وإنما كان يعلق الأمر على موقفهم عند وصل جيش المسلمين إليهم. وبخاصة بعد وفود زعماء منهم بإعلان الطاعة وإيتاء الزكاة؟

وليس أدل من هذا على أن الصديق رضى الله عنه قد كان يعمل عمله فى حروب الردة جميعا وهو على استطلاع وثيق وعلم واف بأحوال كل طائفة من المرتدين، وأن من دواعى انتصاره وفاء أخباره بحاجات القتال ونقص أخبار المسلمين عند القبائل المرتدة بعيدها وقريبها على السواء.

فتقديره لموقف بنى أسد منذ البداية كان أصح تقدير.

وكذلك كان تقديره لموقف بنى حنيفة فى اليمامة..

ومثل هذين فى صحة الإلمام بالأحوال المختلفة شكه فى ضرورة القتال

---

(١) أقمنها: أحقها وأجدرها.

بالبطاح، وتعليقه القتال مع مالك بن نويرة على شرط، وتخصيصه مالكا بالذكر دون الآخرين من زعماء بيوت بنى تميم فالواقع فى أمر بنى تميم كما نعلمه اليوم أنهم لم ينطووا على خطر جسام[1] وإن اختلفت فى نياتهم الظنون.

وتاريخهم قبل الإسلام بعشرات السنين يؤكد هذه الحقيقة، ويوحى إلى الخليفة رأيه الذى ارتآه.

كانوا فى أجهل أيام فى طليعة العرب كثرة ومنعة وسعة بلاء ووفرة ماء ومرعى.

وكانوا يجترئون على المغامرات التى تفرق[2] منها القبائل الأخرى، فبطشوا مرة بقافلة عظيمة من قوافل الفرس التى تسير فى رعاية الدولة الفارسية وحراسة أناس من بنى حنيفة. وفارس دولة ضخمة يهابها العرب، وبنو حنيفة قوم من المنعة والعزة بمكان. فلما استشار كسرى بعض زعماء بنى حنيفة فى عقوبتهم قال له: "إن أرضهم لا تطيقها أساورتك[3] وهم يمتنعون بها ولكن أحبس عنهم الميرة، فإذا فعلت بهم ذلك أرسلت معى جند من أساورتك، فأقيم لهم السوق، فإنهم يأتونها فتصيبهم عند ذلك خيلك".

وكذلك لم يتمكن منهم كسرى حتى منع عنهم حاجياتهم من أرض الحضارة فى سنة مجدبة. واستعان عليهم بمن يستدرجهم إلى مكان ينالون فيه..

ولكن بنى تميم على هذا كانوا مثلا من الأمثلة النادرة على عجائب الحظوظ فى هذه الدنيا، فقلما ظهر للمعتبرين أن الكثرة والسعة والمنعة والوفرة تنقلب أحيانا إلى نقمة تشبه القلة والضنك والخف كما ظهر ذلك فى شأن بنى تميم.

---

(١) جسام (بضم الجيم): جسم. (٢) تغرق: تخاف.

(٣) الأساورة: جمع أسوار وهو الفارس والقائد فى جيش الفرس.

فقد كانت كثرتهم وسعة بلادهم واكتفاء كل بلد منها بمراعيه وأمواهه[1] سببا لتفرقهم وتصدع وحدتهم وتعذر الإجماع بينهم على رئيس واحد. فتشبعوا بطونا يدين كل بطن منها لرئيس، بل بيوتا فى البطن الواحد يبلغ من تنافسهم أن يتحاربوا ويتوارثوا التراث، ويصبح التوفيق بينهم أعسر من التوفيق بين أحدهم الغريب الطارئ عليهم من الأعداء والأصدقاء..

وكان هذا شأنهم يوم ظهرت الدعوة المحمدية، فلما بلغتهم خاف كل منهم أن يرفضها فيكون منافسوه الواقفون له بالمرصاد حربًا عليه. فأجاب رؤساؤهم الدعوة، وأقرهم النبى على رئاستهم، ومنهم الزبرقان بن بدر على الرباب، وقيس بن عاصم على مقاعس والبطون، ووكيع بن مالك على بنى حنظلة، ومالك بن نويرة على بنى يربوع وهم بيت من بيوت بنى حنظلة الكبار.

وكل أولئك رجال من ذوى الرأى الراجح والقول النافذ والمناقب الشخصية".. ويمتاز من بينهم مالك بن نويرة بمزايا أخرى لم تتفق لواحد منهم، وهى اللباقة والظرف والفصاحة وحسن المحاضرة، مع الوسامة والصباحة وأناقة الزى والشارة، وهى فى جملتها تلك الصفات التى ترشح صاحبها لمآسى البطولة فى قصص الحياة، من واقع أو خيال.

كانت فيه خيلاء وجفلة[2]، وكان متنلافا لا يبقى على مال، وكان فارسا شاعرا محدثًا ظريف المدخل على من يعرف ولا يعرف، ومن ذاك أنه كان يقصد الحى من أحياء الأعداء وله فيه أسرى يريد فكاكهم بالفدية المصطلح عليها، فلا يحدث أهل الحى هنيهة حتى يخلبهم بحديثه، ويأسرهم بظرفه وحسن سمته[3] فيردوا إليه أسيره بغير فدية، ويفترقوا وهم أصفياء..

---

(١) الأمواه: جمع ماء، ويجمع كذلك على (مياه).

(٢) جفلة: من قولهم (جفل) إذا شرد ونفر، وفى ذلك عجرفة وتكبر.

(٣) سمته: هيئته.

وكان مالك هذا أول من قصدت إليه سجاح المتنبه عند منحدرها[1] من الجزيرة. فصرفها عنه بلباقة إلى ملاقاة البطون الأخرى من بني تميم. ولعله زين لها أن تجمعهم إليها غضبه واحدة، لعلمه باستعصاء ذلك عليها وعلى غيرها. . وأنها وشيكة أن تنتقم له منهم إن هي دعوتهم إلى الالتفات بها فلم يجيبوها. ولم تزل الأنباء - قبل مقدم سجاح وبعد منصرفها[2] - يتابع بعضها بعضا بإنكسار المرتدين وغلبة المسلمين عليهم. إلا ما كان من هزيمة عكرمة في اليمامة وانتصار بني حنيفة عليه، وهو انتصار لا يسر بني تميم لشدة المنافسة بينهم وبين بني حنيفة.

فلما أخذ الخليفة في عقد الألوية وتسيير البعوث كان بنو تميم على حالهم المعهود من التفرق والمراقبة بعضهم لبعض على توجس وحذر، فسبق بعضهم إلى المدينة بحصته من الزكاة، وتأخر بعضهم حتى نزل خالد بأرضهم فدفعوها إليه، وتحير مالك بن نويرة فلم يعزم على الحرب ولم يؤد الزكاة.

وأغلب الظن أنه بدد ما جمع من الصدقات في هباته وملاهيه، ثم ليم في ذلك فأجاب لائميه بأبيات قال فيها:

وقلت خذوا أموالكم غير خائف ... ولا ناظر فيما يجئ من الغد
فإن قام بالأمر المخوف قائم ... منعنا وقلنا الدين دين محمد

يعني أن محمدا هو صاحب الدين وصاحب الزكاة، وقد مضى محمد فليس لأحد بعده أن يتقاضاه.

وهو على الجملة موقف رجل مسرف "لا يبالي ما يجئ من الغد" كما قال: وليس بموقف عناد وتحفز لقتال.

فلما نزل خالد بالبطاح لم يجد أمامه أحدا يلقاه بزكاة أو يلقاه بقتال. فعسكر حيث نزل وأرسل السرايا في أثر أهل البطاح، فجاءته بمالك بن نويرة

(١) منحدرها: انحدارها (مصدر ميمي). (٢) منصرفها: انصرافها (مصدر ميمي).

فى نفر من بنى يربوع. فحبسهم ثم أمر بقتلهم، وحدث بعد ذلك أنه تزوج بامرأة ليلى أم تميم، وكانت من أشهر نساء العرب بالجمال، ولاسيما جمال العينين والساقين. يقال إنه لم ير أجمل من عينيها ولا ساقيها.

وتضطرب الروايات هنا أبعد اضطراب وأصعبه أن تهتدى منه إلى مخرج متفق عليه.

فمن قائل إن السرايا وجدت بنى يربوع يصلون وسمعت الأذان، ومن قائل: لم نر صلاة ولم نسمع بأذان.

ومن قائل إن الأسرى قتلوا لأن الليلة كانت باردة ونادى مناد من قبل خالد "أن دافئوا أسراكم" ففهم الحراس أنه يريد القتل لأنهم من بنى كنانة والمدافأة بلهجتهم كناية عنه.

ومن قائل إن مالكا قتل بعد محادثة حامية جرت بينه وبين خالد. ثم تضطرب الروايات فى نقل حديثهما فلا يدرى له نص صحيح. فقيل إن مالكا صرح بأنه لا يعطى الزكاة وإنما يقيم الصلاة. فقال خالد: أما علمت أن الصلاة والزكاة معا، لا تقبل واحدة دون الأخرى؟ فقال مالك: قد كان صاحبك[1] يقول ذلك. فأخذ خالد قوله دليلا على تبرئه من النبى وقال له: أو ما تراه صاحبا؟. ثم حمى الجدل بينهما حتى أمر بقتله.. ونسجت الخرافة بعد ذلك نسيجها الذى لا يتماسك لوهيه[2]. فزعموا أن خالد أمر برأسه فجعل مع حجرين وطبخ على الثلاثة قدرا فأكل منه، وأن شعر مالك جعلت النار تعمل فيه إلى أن نضج اللحم ولم يفرغ الشعر! وهى خرافة تروى لتدلنا على شيء واحد: وهو وجود المحنقين الراغبين فى التشهير بخالد وتبشيع أعماله وإيغار الصدور عليه.

---

(١) يقصد بقوله (صاحبك) النبى ﷺ. (٢) لوهيه: الوهى: الضعف.

وقيل إن مالكا لمح فى عينى خالد الإعجاب بامرأته فصاح به: هذه التى قتلتنى. فقال له خالد: بل الله قتلك برجوعك عن الإسلام.

ويذهب بعضهم إلى أكثر من هذا فيزعمون أن هوى خالد لها: سابق لحرب الردة، وفى ذلك يقول أن ثمير السعدى:

قضى خالد بغيًا عليه بعرسه وكان له فيها هوى قبل ذلك[١]

وقيل إن خالدا توعد مالكا بالقتل فقال له مالك: أو بذلك أمرك صاحبك؟ قال خالد: وهذه بعد تلك؟ ثم تكلم أبو قتادة الأنصارى وعبد الله بن عمر فى آمره فكره خالد كلاهما. وعاد مالك يقول له: يا خالد: ابعثنا إلى أبى بكر فيكون هو الذى يحكم فينا. فقال خالد: لا أقالنى الله إن أقلتك[٢]. وتقدم إلى ضرار بن الأزور أن يضرب عنقه. ويزيدون على ذلك أن خالدا دعا أبا قتادة الأنصارى وعبد الله بن عمر إلى حضور عقد الزواج بليلى بعد مقتل زوجها، فأبيا وأشارا عليه أن يكتب إلى أبى كبر، فلم يستمع إليهما.

وغضب أبو قتادة فأقسم لا يجمعه بعد اليوم وخالداً لواء واحد، وقفل إلى المدينة غير مستأذن من قائده، فلقى الخليفة ولقى عمر بن الخطاب، فكانت غضبة عمر أشد وأعنف. وطلب إلى الخليفة أن يعزله وأن يقيده[٣] قائلا: إن سيفه فيه رهق[٤] فلم يجبه الخليفة وقال له: يا عمر، تأول فأخطأ[٥]. أرفع لسانك عن خالد، فإنى لا أشيم[٦] سيفا سله الله على الكافرين.

---

(١) العرس: (بكسر العين): الزوج، رجلا أو امرأة.

(٢) لا أقالنى الله أن أقلتك، لا صفح الله عنى أن أنا صفحت عنك.

(٣) بقيده: يقتله قصاصا. (٤) رفق: سفه وطغيان.

(٥) تأول فاخطأ: حاول أن يتفهم الأمر وبغيره وبقسره فأخطأ.

(٦) يشيم السيف: يغمده.

ولكنه ودى مالكا واستدعى خالدا إليه، فلما قدم إلى المدينة رأى عمر منه ما زاده غضبا وشدة فى طلب القود منه. رآه قد دخل المسجد وعليه قباء[1] وقد غرز فى عمامته أستهما. فنهض إليه فنزعها وحطمها وصاح به: "قتلت أمرءًا مسلما ثم تزوت على امرأتيه، والله لأرجمنك بأحجارك"..

فتركه خالد ولقى الخليفة فاعتذر إليه. فعنفه الخليفة وأمره أن يفارق ليلى، ثم عفا عنه واستبقى خدمته. فعاد خالد إلى المسجد وفيه عمر.. فبادره حين رآه مناجزاً: هلم إلى يا ابن أم شملة[2].. فعرف عمر أن الخليفة قد عفا عنه. فلم يكلمه ودخل بيته.

وحسنا من هذه الأقوال جميعا أن نقف منها على الثابت الذى لا نزاع فيه. والثابت الذى لا نزاع فيه أن وجوب القتل لم يكن صريحا قاطعا فى أمر مالك بن نويرة، وأن مالكًا كان أحق بإرساله إلى الخليفة بين زعماء فزارة وغيرهم الذين أرسلهم خالد بعد وقعة البزاخة، وأن خالدا تزوج امرأة مالك وتعلق بها وأخذها معه إلى اليمامة بعد لقاء الخليفة..

وأوجب ما يوجبه الحق علينا بعد ثبوت هذا كله أن نقول: إن وقعة البطاح صفحة فى تاريخ خالد كان خيراً له وأجمل لو أنها حذقت ولم تكتب على قول من جميع تلك الأقوال، لأنها لم تضف إلى فخاره العسكرى كثيرا ولا قليلا، وأهدفته[3] لملام أحمد ما يحمد منه أن له عذرا فيه، يقبله أناس ولا يقبله آخرون.

يجب تقرير هذا عند تقدير خالد لأنه الحق الذى لا يعلو على ميزانه ميزان فى ترجيح الرجال والأعمال.

ولأن الرجل الذى يخشى على قدره من تقرير أخطائه رجل لا يستحق

---

(١) القباء: ثوب يلبس فوق الثياب أو القميص.

(٢) الشملة: كنساء عن صوف أو شعر يتلفف له. (٣) أهدفته: عرضته.

أن يكتب له تاريخ. إذ معنى الخشية عليه من أخطائه أنه فقير فى الحسنات والعظائم، وأنه من الفقر فى هذا الجانب بحيث تعصف الأخطاء بعظمائه وحسناته. ولم يكن خالد بن الوليد كذلك، بل كانت له فى ميزان العظمة والعبقرية كفة راجحة، ولم يكد يرحل عن البطاح حتى اتصلت له حلقات من كبار الأعمال توزع على عشرة رجال ويجد كل منهم فى نصيبه كفايته من الفضل والرجحان.

خرج من البطاح إلى اليمامة

خرج من وقعة لأخطر لها إلى وقعة لها الخطر الأكبر فى حروب الردة وفى حروب الإسلام كافة خلال أيام الخلفاء الراشدين ويرجع هذا الخطر إلى قوة بنى حنيفة أصحاب اليمامة، ودهاء رئيسهم مسيلمة بن ثمامة، ومنعة بلادهم بالجبال والأودية ووفرة المال والثمرات.

هابها أصحاب سجاح وقالوا لها حين حدثتهم بغزوها: إن مسيلمة قد استفحل أمره وعظم.. فلم تهون عليهم خطبا حتى استنزلت لهم سجعات من وحيها المزعوم تقول فيها: "عليكم باليمامة. دفوا دفيف[1] الحمامة، فإنها غزوة صرامة[2] ولا تلحقكم بعدها ملامة: ".

وكان مسيلمة هذا رجلا قصيرا أخنس الأنف أفطسه[3] شديد الصفرة زرى الهيئة، ولكنه على ما يؤخذ من أخباره كان على ذكاء منفرط وحيلة نافذة، وكان من أولئك الدهاة الذين يعوضون بالحيلة ما فاتهم من الهيبة والرواء، فاشتهر بالخلابة[4] والقدرة على استهواء النفوس من الرجال

---

(١) دنوا دنيف الحمامة: يقال (دف الطائر دفيفا) إذا ضرب جنبيه بجناحيه، أو حرك جناحيه وهو واقف على الأرض. (٢) صرامة: قاطعة حاسمة.

(٣) أخنس أفطس: الخنس: تأخر الأنف عن الوجه مع ارتفاع قليل فى الأرنبة، والفطس: انخفاض قصبة الأنف.

(٤) الخلابة: (بكسر الخاء) من خلبه إذا خدعه وفتن قلبه.

والنساء، فمن خلابته أن النبى عليه السلام أرسل غليه رجلا من قراء القرآن ليعلم أهل اليمامة أحكام الإسلام ويبصرهم بالفرائض والعبادات وهو نهار الرحال[1]. فما لبث الخبيث أن استغواه حتى شهد له أنه يوحى إليه، وأنه سمع النبى عليه السلام يقول إنه قد أشركه معه وشهد له بالنبوة.. وقد استغوى سجاح - وهى تدعى النبوة - حتى شهدت بنبوته وتزوجه، وانصرفت من بلاده بنصيب من الهدايا يقنعها بالذهاب ولا يضمن لها التكرار. وكأنه كان على حظوة عند النساء وخبرة بأهوائهن وأساليب مرضاتهن. فقد كان نساؤه يجبنه ويجزعن عليه، وصاحت إحداهن ساعة أن قتله وحشى بن حرب مولى جبير بن مطعم: "وا أمير الوضاءة[2]. قتله العبد الأسود..."

خليق بهذا أن يظن به السحر وتنتظر منه الخوارق بين الجهلاء. لأنهم يرون سلطانه ولا يعلمون مأتاه. فيخيل إليهم أنه سر من الغيب، أو معونة من الجنة والشياطين، وهو على هذا كان يعين حيلته بما استطاع من صناعة الشعوذة والألاعيب التى كان يحذقها لعض الكهان فى بلاد العرب والعجم، فكان قبل دعائه النبوة يطوف بالأسواق ويتعلم "النيرنجيان"[3] حيث سمع بأساتذتها المبرزين فيها. ولم يكن فى طبيعة بمعزل عن طبائع السحرة وأدعياء الغيب. فقد قيل فى وصفه وهو ينكهن: "إنه إذا اعتراه شيطانه أزيد حتى يخرج الزبد من شدقيه"... والأغلب الأرجح أنه به صرعا كأولئك الذين

---

(١) الرحال: فى تاريخ الطبرى (الرجال) بالجيم لا بالحاء. وذكر أنه الرجال ابن عنفوة بن نهشل.

(٢) الوضاءة: الحسن والجمال والنظافة.

(٣) النيرنجيات: النيرنج: عمل يبدو كالسحر، وليس سحرا، وذكر أين قتيبة فى كتاب (المعرف) أن مسلمة كان صاحب نيرنجيات، وهو أول من أدخل قتيبة فى كتاب (المعارف) أن مسيلمة كان صاحب نيرنجيات، وهو أول من أدخل البيضة فى فارورة، وأول من وصل جناح المقصوص من الطير.

يشبهونه فى الخلائق والدعاوى، ومنهم الذين يعالجون[1] "الاستهواء" من المستهوين أو الوسطاء[2].

ولسلطانه على أبناء قبيلته أحبوه ووثقوا به وأطاعوه. فتأتى له أن يجمع منهم أربعين ألف أو ستين. وهو عدد ربما ارتفعت به المبالغة أو بالجهل بالتقدير، ولكنه لا يهبط إلى ما دون العشرين قياسا على ما وصفت به معركة اليمامة من الهول وكثرة القتلى والجرحى بين الفريقين.

وقد كان مسيلمة يحسب الحساب لأمور كثيرة يوم تصدى لدعوة النبوة ومقاومة الإسلام. فكان يقاتل ثمامة بن أثال ويناوش بنى تميم لما بينهم من الذحول[3] والمنافسات، ويتوقى شر سجاح وقومها التغلبيين، ودولة الأكاسرة من وراء التغلبيين ويعلم أن أشياعه من بيوت بنى تميم قد يخلونه، وأن الذين دانوا الإسلام بين قومه عيون عليه، وأن الخليفة لا يمهله ولا يجهل أخباره. فتحيل على مهادنة خصومة، وفرغ جهده لحرب المسلمين وحدهم، وحشد كل ما وسعه من جند وسلاح، تقدم بهم فى عجلة إلى موقع يقال له عقرباء فى طرف بلاد على مقربة من بلاد بنى تميم.

ولم يكن يجهل خطر الرجل الذى سيلقاه، ولم يكن يخفى عليه أن الحروب فى الرعاء غير الحرب فى بلاد تكتنفها الجبال وتقام فيها الأبنية والأسوار، فتوجه إلى اليمامة فى أهبة كافية بالقياس إلى أهبة المسلمين لأعدائهم فى صدر الإسلام.

ولا يعلم على التحقيق عدد الجيش الذى كان معه فى عقرباء، ولكنه

---

(١) يعالجون: يمارسون.

(٢) الاستهواء: معناه فى اللغة التأثير فى المرء حتى يتقبل رأى دون أن يقوم دليل يقينى على صحته، قال تعالى "كالذى استهوته الشياطين" ويمارس اليوم باسم (الايحاء) أو (التنويم المغناطيسى) عن طريق الوسطاء.

(٣) الذحول: جمع دخل وهو الثأر.

على التقريب يجاوز الثمانية الآلاف ولا يقل عنها. لأن جيشه بالبزاخة نحو خمسة آلاف، يضاف إليهم جيش شرحبيل ابن حسنة الذى سبقه ولبث فى انتظاره، ولا يقل عن ألفين، ويضاف إليهم الردء الذى[1] أرسله الصديق وراءهم بقيادة سليط بن عمرو ليحمى ساقتهم[2]، وغير هؤلاء من تطوع للحرب مع المسلمين من بنى تميم وبنى حنيفة، فهم فى جملتهم يجاوزون الثمانية الآلاف ولا ينقصون عنها، إن نقصوا، إلا بقليل..

لكن مكان القوة من هذا الجيش الصغير إنما هو كثرة الصناديد من أبطال الصحابة المشهورين فيه. فقد كان جيش المسلمين لا يجاوز فى عدته نصف جيش اليمامة، ولكنه كان فى عدة وافية من أفذاذ الرجال الذين يقومون بالألوف .. فهم وأعداؤهم بهذه المثابة كفؤان متناظران

وكانا كفؤين متناظرين فى صدق النية واتقاء العار من الهزيمة. هذا تأخذه غيرة الحرم[3] وهذا تأخذه غيرة الدين. وقد قال ابن مسيلمة لقومه وهم يتقدمون إلى المسلمين: هذا يوم الغيرة. اليوم إن هزمتم تستنكح النساء سبيات، وينكحن غير حظيات، فقاتلوا عن أحسابكم امنعوا نساءكم"[4].

فليست تغور الخصمين حرارة الخصومة، ولا شواحذ[5] الغيرة، ولا صلابة العزم، ولا توسم الأمل فى النجاح.

ولم يزل خالد يتقدم إلى وجهته على تعبئة كاملة كعادته معظم

---

(١) الردء: العون، ويراد له به هنا المدد الذى أرسله للمعونة.

(٢) ساقتهم: مؤرختهم.

(٣) الحرم: جمع حرمة وهى المرأة، وحرم الرجل: أهله.

(٤) فى رواية "تستردف" بدلا من "تستنكح" فى أخرى "تستحقب" وفى بعض الروايات "خطيبات" أو "رضيات" بدلا من "حظيات" والمعنى العام للعبارة واحد، وهو الغيرة على النساء أن تستباح أعراضهن.

(٥) شواحذ الغيرة أى ما يشحذها ويؤيدها حدة (من شحذ السكين).

غزواته.. وكان يتلقى الأخبار عن مسيلمة وحركاته فى كل مرحلة من مراحل الطريق. ولعله استعظم القوة التى حشدها مسيلمة فى عقر داره فجنح إلى الأخذ بالأحوط، وكتب الخليفة فى طلب المدد عسى أن يحتاج إليه بعد الجولة الأولى جولات القتال، فأمده الخليفة بجرير بن عبد الله البجلى ولكنه التحم بجيوش مسيلمة قبل أن يصل إليه، فليقه منصرف من اليمامة.

ولما دنا من أرض مسيلمة مرت مقدمة جيشه فى الليل بكوكب من الفرسان بين الأربعين والستين.. عليهم مجاعة بن مرارة من زعماء نبى حنيفة وأصحاب الرأى والمنزلة فيهم، وكأنه كان خارجا لاستطلاع أمر المسلمين، ولكنه أنكر ذلك وزعم أنه ذهب "لأخذ ثأر له فى بنى عامر". فلما سئلوا عن دينهم واستبقى مجاعة عسى أن ينتفع بمنزلته فى قومه أو بعلمه بالحرب والمكيدة كما قال لبعض الرواة

ونزل خالد على كثيب[1] فى مواجهة مسيلمة. ثم التحم الفريقان، "وقاتلت بنو حنيفة قتالا يعهد مثله"، واندفعت فى هجمتها حتى دخلت خيمة خالد من وراء العسكر وفيها امرأته أم تميم ومجاعة بن مرارة مقيد بالأغلال[2].. فهم بعض الحنيفين بقتلها لولا أن حماها منهم مجاعة وأوصاهم بها خيراً وهو يقول: نعمت الحرة هذه. وعليكم بالرجال.

شوهد فى كثير من المعارك بين المسلمين وأعدائهم فى الصدر الأول أن الكرة الأولى غالبا ما تكون للمشركين، ولاسيما حين تجتمع لهم مزية العدد والراحة حيث يختارون مكان القتال، وهى مشاهدة لا تستغرب ولا تخالف المعهود. لأن "الدفعة الحيوانية" أبداً لها الوثبة الأولى مع العدد الكثير وراحة الجسد. وإنما الثبات للعقيدة التى يلوذ بها الإنسان بعد المراجعة، وللضمير الذى يثوب إليه المرء بعد الامتحان. وليس من شأن العقيدة أن تكون -

---

(١) كثيب: الكثيب من الرمل: المجتمع. (٢) الأغلال: القيود.

كالدفعة الحيوانية - وثبة عاجلة وهجمة سوارة[1] فاشلة. وإنما شأنها أن تحاسب النفس وتستعيد قواها وتستخرج ذخيرتها من أعماقها. فهى لهذا تنفع صاحبها فى المحنة وبعد تبين الشدة. وبخاصة حين يحتاج إليها بعد الجولة الأولى.

وهذا الذى حدث فى عقرباء كما حدث فى وقائع شتى.

فبعد الجولة الأولى التى فازت بها "الدفعة الحيوانية" برزت العقيدة إلى الطليعة وجاءت بمعجزاتها، وهى معجزات لا يتخيل العقل أن نفسا إنسانية تقدم عليها بغير اعتقاد.

انكشف الأعراب أولا فى أول صدمة، وتزلزلت أقدام الناس من الأنصار والمهاجرين من طغيان الجموع الهازمة على السواء فبادر خالد إلى تنظيم جيشه على وضع جديد. فميز المهاجرين وميز الأنصار وميز الأعراب كل بنى أب على راية. وصاح بهم أيها الناس تمايزوا حتى نعرف من أين تؤتى[2].

ثم عول على الموت كما وصاه أبو بكر فوهبت له الحيلة ووهب النصر[3]. حمل على القوم حتى تجاوز الصفوف وجعل بخاطب مسيلمة ويعرض عليه النصف[4] والرجوع إلى الحق، ومسيلمة يروغ منه. ثم نادى بشعار المسلمين: يا محمد. . ودعا إلى المبارزة وهو يصول ذات اليمين وذات الشمال ولا من يثبت له فى مسجال، ولم يبال أن ينظر إلى ما رواءه لأنه ترك كل شيء فى تلك الساعة إلا أن يتقدم أمامه. ولم يزد على أنقال لجيرته أو

---

(١) سوارة: غاضبة محتدمة.

(٢) من أين نؤتى: من ناحية من أى جبهة يتمكن العدو منا إذا قدر له ذلك.

(٣) يشير إلى قول أبى بكر "أحرص على الموت توهب لك الحياة".

(٤) النصف: (بكسر النون المشددة): الإنصاف.

من نسيمهم اليوم أركان حربه: "لا أوتين من خلفى" ومضى إلى تقدم بغير رجوع، إلا رجوع ظافر مختار.

وظهرت فى مقام الهول فضيلة الصناديد من كبار الصحابة فحفر ثابت بن قيس لقدميه فى الأرض إلى أنصاف ساقيه وهو يحمل لواء الأنصار بعد ما تحنط وتكفن[١]. فلم يزل ثابتا حتى قتل فى مكانه.

وصاح زيد بن الخطاب: أيها الناس عضوا على أضراسكم واضربوا فى عدوكم، وامضوا قدما. ثم أقسم: والله لا أتكلم حتى يهزمهم الله أو ألقى الله فأكلمه بحجتى، فكانت آخر ما فاه به فى ذلك اليوم

وحمى البراء بن معرور وأخذته العرواء[٢] التى كانت تأخذه حين تتعالى الوغى[٣] ويحتدم القتال. فكان كأنما يبحث عن الموت ويهرب من الحياة.

وتجاوبت الساحة بأصوات الأبطال يوصى بعضهم بعضا، وينظر بعضهم إلى بعض وهم ينقضون على أعدائهم ويتنادون بينهم: يا أصحاب سورة البقرة.. يا أنصار الله.. كما ناداهم النبى عليه السلام فى يوم حنين. فاستحى كل منادى منظور المكان منهم فى ذلك المشهد العظيم أن ينكص على عقبيه، ولم ير منهم إلا قتيل فى موضعه، أو زاحف إلى الأمام.

وما هى إلا سويعات حتى انكشف أصحاب مسيلمة منكسرين، وهرول مسيلمة نفسه إلى حديقة مسورة من ورائه. وقد سميت فى ذلك اليوم بحديقة الموت لكثرة من قتل فى طريقها وكثرة من قتل فيها. ولاحت من البراءة نظرة

---

(١) تحنط وتكفن: استعد للموت بوضع الحنوط (أو الحنوط) وهو ما يخلط من الطيب لأكفان الموتى وأجسامهم من مسك وغيره، وتدثر بالكفن.

(٢) العرواء: أول ما يمس المريض من برد المحمى.

(٣) الوغى: الجلبة والأصوات، ومنه سميت الحرب (الوغى) لما فيها من الصوت والجلبة.

إلى جانب الباب فإذاهم قد أوشكوا أن يغلقوه عليهم. فصاح بإخوانه يا معشر المسلمين: ألقونى عليهم من فوق سورها. فاحتملوه فوق الحجف[1] ورفعوها بالرماح حتى بلغت أعلى السور فسقط منه على القوم بعد تردد، ولم يزل يعالج باب الحديثة حتى فتحه، وقد تواثب أفراد من المسلمين إلى جانبه فأعانوه.

وقتل فى هذه الهجمة مسيلمة كما قتل محكم بن الطفيل أكبر أعوانه ومشيريه، فاضطرب بنو حنيفة ووقعوا فى الحيرة وهم فى هزيمة يشار فيها برأى ولا يصغى فيها إلى مشير فشغلوا عن باب الحديثة وأعين المسلمون على اقتحامهم من داخلها وخارجها، فحق لتلك الحديثة فى ذلك اليوم أن تسمى حديقة الموت، لأنها اشتملت فى يومها على ألوف من القتلى، وبلغ عدد القتلى جميعا فى ذلك اليوم بين ساحة القتال وحديقة الموت عشرات الألوف، أقلهم فى تقدير المقدرين عشرة آلاف من بنى حنيفة وستمائة من المسلين، وأكثرهم فى تقدير المقدرين يرتفعون إلى سبعين ألفا أو ثمانين حنيفين وألفين مسلمين، وهو رقم لا يدل على نبأ صحيح، ولكنه يدل على هول صحيح سرى فى الآفاق من أبناء تلك المعركة التى ذهبت فيها نخبة من أجل الصحابة وأفقه الفقهاء، ومن جراء مقتلهم فى هذه المعركة أمر الخلفاء بجمع القرآن فى المصحف بعد أن فنى الكثيرون من حافظيه، وخيف أن يفنى آخرون.

ثم بعث خالد الخيول حول اليمامة يلتقطون ما حول حصونها من مال وسبى، وعزم على غزو حصونها جميعا ولم يكن بقى فيها إلا النساء والصبيان والشيوخ والكبار، فاقترح عليه مجاعة أن يذهب إليهم لينزلهم لهم صلحا عن معاقلهم. ثم خدعه وأخلص لقومه، لأنه أمر النساء والكبار أن يلبسوا الحديد ويبرزوا من رءوس الحصون، فنظر خالد فإذا الشرفات ممتلئة من

---

(١) التروس من جلد بلا خشب.

رءوس الناس. فآثر المصالحة لما رأى بالمسلمين من الجهد[1] "وقد كلوا من كثرة الحروب" واشترط أن يسلموا وأن يكون له نصف السبنى والغنائم، ثم نزل من النصف إلى الربع حين أوهمه مجاعة أن القوم قد رفضوا ما قبل منه فلما اطمأن المعتصمون إلى الحصون من بنى حنيفة فتحوا أبوابها فلم ير فيها إلا امرأة أو صبى أو شيخ فإن أو رجل هزيل لا يرجى لقتال.

وقد يتوقع من خالد أن يغضب على مجاعة ويبطش به بطشة خالدية بعد هذه الخدعة التى اجترأ عليه بها علانية وهو فى قبضة يديه.

لكننا فى الحق لا نعجب إذا هو لم يغضب. لأن عمل مجاعة لا مراء عمل نبيل يكبره فى النفوس النبيلة، ويبعث له فيها الإعجاب الذى يكفكف من شرة كل[2] غضب سريع. فهو عمل ينضح بالمروءة والغيرة على العشيرة، وكلتاهما فضيلة يعرفها خالد ويعرف للمتصف بها قدره فلا يذله ولا يجزيه شر الجزاء.

وقصارى ما بلغ من غضبه أنه نظر إليه نظرة شزراء[3] وصرخ به: ويحك.. خدعتنى. فلم يجبن مجاعة ولم يعتذر، وإنما قال: هم قومى!

وما نحسب إلا أن الإعجاب بمجاعة قد حبب إلى خالد أن يصهر إليه ويوثق الصلة بينه وبين: زعيم شجاع جميل الرأى حسن التدبير غيور على قومه عليم كان وصفوه بمكيدة الحرب والسلم. فهو خير صهر فى تلك القبيلة التى يفخر "سيف الله" بدخولها على يديه فى الإسلام، ويطيب له أن يعزز صلة الدين بصلة البيت والنسب. وقد طاب له المقام بتلك البقاع المخصبة التى

---

(١) الجهد: (بفتح الجيم) المشقة.

(٢) الشرة: (بكسر الشين وتشديد الراء المفتوحة) الحدة، يقال (أعوذ بالله من شرة الغضب).

(٣) النظرة الشزراء: تكون بمؤخر العين، وذلك فى حال الأعراض أو الغضب.

يزينها له النصر كما يزينها طيب الهواء. فاختار له واديا من أوديتها الجميلة يسمى الوبر ليقيم فيه حتى يؤمر بوجهة أخرى، وخطب إلى مجاعة فتاة له موصوفة بجمالها، وهى خطبة لا ترفض ولكنها قد تقبل وتؤجل. لأن مجاعة قد علم من "ليلى" مذ كان سجينا فى خيمتها كيف تلقى الخليفة وأصحابه خبر زواجها بخالد فى ساحة القتال، فأشفق هذا الرجل المحنك البصير بالعواقب من عاقبة تسوؤه وتسوء ابنته وتسوء خالدًا فى جريرته[(١)].
فاستمهله ولم يعجل بتلبية طلبه، وقال له: "مهلا.. إنك قاطع ظهرى وظهرك معى عند صاحبك"... ولكنه لم يلبث أن علم إصرار خالد حتى أجابه ورأى أن عاقبة القبول أسلم من عاقبة الإباء.

وكان خالد قد تلقى من الخليفة أمرا باستئصال كل من يحمل السلاح من بنى حنيفة، فعادت الرسل إلى الخليفة بخبر الصلح وخبر الزواج، فحسب أن الأمرين مقترنان، واشتد به السخط على عمل خالد بما وقع فى نفسه من حسبان، فكتب إليه أعنف خطاب وجهه إلى قائد من قواده، أو وال من ولاته، وسماه ابن أم خالد..." وقال له فى خطابه: إنك لفارغ. ونعى عليه[(٢)] أنه "ينكح النساء وبفناء بيته دم ألف ومائتى رجل من المسلمين لم يجفف بعد".

وقد كتب خالد إلى الخليفة يعتذر فى آنفة وعزة: "أما بعد: فلعمرى ما تزوجت النساء حتى تم لى السرور وقرت بى الدار[(٣)]، وما تزوجت إلا إلى امرئ لو عمدت إليه من المدينة خاطبا لم أبل[(٤)]. دع أنى استثرت خطبتى إليه من تحت قدمى، فان كنت قد كرهت لى ذلك لدين أو دينا أعتبك[(٥)]، وأما

(١) الجريرة: الذنب. (٢) نعى عليه: عابه وشهر به.

(٣) قرت بى الدار: استقررت واطمأنيت.

(٤) لم أبل: أو إبل: لم أبال وحذف الألف تخفيها لكثر الاستعمال (قرب الموارد الجزء الأول ص٦١).

(٥) أعتيتك: أرضيتك، وفعلت ما يسرك بعد أن فعلت ما ساءت.

حسن عزائى على قتلى المسلمين فو الله لو كان الحزن يبقى حيا أو يرد ميتا لأبقى حزنى ورد الميت، ولقد اقتحمت فى طلب الشهادة حتى يئست من الحياة وأيقنت بالموت. وأما خدعة مجاعة إياى عن رأيى فإنى لم أخطئ رأى يومى، ولم يكن لى علم بالغيب، وقد صنع الله للمسلمين خيرا، وأرثهم الأرض[1] وجعل لهم عاقبة المتقين.

وقال فى رسالة أخرى: "إنى لم أصالحهم حتى قتل من كنت أقوى به، وحتى عجف الكراع[2] ونهك الخف[3] ونهك المسلمون بالقتل والجراح".

وقد ظن خالد أن الخليفة لم يكن ساخطا عليه ذلك السخط لولا إصغاؤه "للأعيسر" كما كان يسمى عمر بن الخطاب ويخيل إلينا أن سخط الخليفة لم يكن ليبلغ به هذا المبلغ لولا أن زواجه ببنت مجاعة سبقه ذلك الزواج الذى خبطت فيه الظنون بعد مقتل مالك بن نويرة.

وعلى هذا انقضى واجب خالد بن الوليد فى حروب الردة كأحسن ما ينقضى هذا الواجب، وقام وحده بأوفر سهم فى هذه الحروب لأنه قمع أخطر الفتن فى الجزيرة العربية من أقصاها إلى أقصاها. فقمع بنى أسد وحلفائهم، وخطرها أنها كانت أقرب الفتن إلى المدينة ومكة. وقمع بنى حنيفة، وخطرها أنها كانت فتنة القبيلة الأقوى، والعديد الأكثر بين العرب قاطبة. وحقق كل ما ندبه له الخليفة وكل ما اتفقنا عليه. سواء من الخطط التى نظر معا فى تفصيلاتها، أو من الخطط التى عرف خالد غاياتها وابتدع لها ما ارتآه من أساليبها فى أماكنها وأوقاتها. ولم يخالف رغبة الخليفة إلا فى موضعين لهما - كما أسلفنا - علاقة بمسألة زواج.

---

(١) أرثهم الأرض: جعلهم يرثونها، ويستولون عليها.

(٢) عجف الكراع: الكراع من البقر والغنم: مستدق الساق العادى من اللحم (ويسميه الكارع) والكراع أيضا اسم بجمع الخيل، وعجف، وعجف: عزل وضعف إلا نهك المخف: المخف للبعير كالحافر للفرس، ونهك: أصابه الضنى والانهاك.

أما الأولى - وهى زواج ليلى امرأة مالك - فقد تقدم تلخيصها، وجملة الرأى فيه - كما أسلفنا - أنه عمل يخوج خالدا إلى الاعتذار والتفسير، وأنه صفحة كان خيرًا له لو طويت من تاريخيه، فما فيها مزيد افتخار، وفيها على أهون القولين مقام اعتذار.

وأما الأخرى فلا يسمع أحدًا أن يسهو فيها عن عجلة خالد الزواج على غير القوم فى ميادين القتال.

ولكن لا يسع أحدا كذلك أن يتعدى هذا إلى مظنة تمس نية الرجل، أو تجعل صلحه لبنى حنيفة متصلا برغبته فى الزواج ببنت مجاعة زعيم الحنفيين فى صلح اليمامة.. ذلك بعيد، جد بعيد..

لأن بنت مجاعة كانت بين يديه، وكان فى وسعه أن يقتل أباها نقمة من خداعه إياه، ومرضاه للخليفة الذى أمره باستئصال من يحمل السلاح فى القبيلة، فهو يقتله ولا معتبة عليه[1].

ولم يصالح خالد بنى حنيفة وهم مجمعون على قبول صلحه. بل كان منهم زعيم له أنصار وأتباع - هو مسيلمة بن عمير[2] - أبى أن يذعن لشروط مجاعة ومضى يهتف فى قومه: "يا بنى حنيفة. قاتلوا عن أحسابكم ولا تصالحوا على شىء، فإن الحصن حصين والطعام كثير، وقد حضر الشتاء".

فلما عارضه مجاعة وذهب برأى الأكثرين من قومه تمادى مسيلمة بن عمير فى لجاج الخصومة، وانسل إلى فسطاط[3] خالد يريد أن يفتك به ويشيع بموته الفتنة التى لا تؤمن عقابيلها[4] فى معسكره ومعسكر بنى حنيفة، فتنبه خالد إليه وسأل: من هذا المقبل؟. فعرفوه به فقال: أخرجوه عنى. فلما

(١) معتبة: عتاب وملامة. (٢) فى الطبرى (سلمة ن عمير).

(٣) فسطاط: خيمة.

(٤) العقابيل: جمع عقبول، وهو الشديد من الأمور، والداهية.

أخرجوه وجـدوه يخفى السيف فى ثيابه، فلعنوه وأوثقـوه فى الحصن وأخذوا عليه عـهداً لا يقربن بـعدها من فسطاط خـالد حتى تنتـهى بيعة قـومه على الإسلام.. ولكنه غـدر بعهـده وأفلت بالليل إلى معـسكر خالد مـصراً على قتله، فلما أدركـوه دون بعيته أجال السيف على حلقـه فقطّع أوداجه[1] وآثر الموت على التسليم.

ومع هذا بقيت بلـدة "القرية" ووادى العرض فى اليـمامة لم يشـملها الصلح الذى شمل العسكر فـى عقرباء. فلم تكن مطاولة[2] القوم خـيراً من المصـالحة فى حـالة كتلـك الحال، ولم يكن فى طاقـة المسلمـين أن ينهضـوا للمطاولة بعد أن قـتل منهم من قتل وجـرح من جرح، ومضى على أكـثرهم عدة شهـور بين مشقة السفـر ومشقة الهول والبلاء، ولـم يكن إرجاء التسليم مأمون المغبة إذا استثيرت نخوة الحنفـيين، وفيهم من يعاند فى الخصومة المغبة إذا استثيرت نخوة الحنفيين، وفـيهم من يعاند من الخصومة ذلك العناد، ولقد يكون المستـسلمون منهم أسرع إلى النكسـة يوم يشهدون بأعينهم سـبى النساء "غير حظيات[3]" وقتل القادرين على الحرب من فتية وكهول.

فدواعى خالد إلى الصلح أظهر وأرجح من أن يعتسف[4] معها داع آخر غيـر معقول ولا مـستساغ، وإن الداعى الذى لا يـعقل ولا يستـساغ هنا لهو التعليل بزواجه من فتاة اليمامة. وأيسـر شىء لديه أن يسبيها بعد قتل ذويها، ثم يكون ذلك أدنى إلى رضا الخـليفة وتحقـيق ما أمر به، قـبل أن يطلع على الموقف فى اليمامة من جملة نواحيه.

وبعـد، فليـحسب زواج خـالد كله فى أى سـجل يشـاء أن يحـسبه

---

(١) أدواجه: جمع ودج (بفتح الدال) وهو عرق فى العنق.

(٢) مطاولة القوم: المضى فى قتالهم ومحاربتهم.

(٣) غر خطيأت: يشير إلى عبارة ابن مسيلمة (فى حروب الردة)، ويقال "حظيت.

(٤) يعتسف: يتعسف، ويتكلف.

الحاسبون، ففى سجل المفاخر الإسلامية شىء يحسب له بعد حرب اليمامة لن يطول فيه خلاف. . فتلك أول حرب ظهر فيـها للمسلمين مصداق قول النبى عليه الصلاة والسلام إنه سيف من سيوف الله.

كان الخطر على الدين الجديد من العـرب أنفسهم ومن أمم "الأعاجم" التى تحيط بالبلاد العربية.

وقد رأينا نصيب خالد من وقاية الإسلام فى أرضه، وهو أوفى نصيب. وسنرى نصـيبه مـن مراس[١] الخطر الآخر ومـا هو بأكبـر الخطرين، ولكن نصيب خالد فى مراسه كان أوفى النصيبين.

* * *

(١) المراس: الجلد والقوة ومعاركة الأمور.